تمثلات الموت المجازي (غير الفيزيقي) في الرواية العراقية من 2003 – 2013

الاستاذ الدكتور حمزة فاضل يوسف
جامعة القادسية / كلية التربية
المدرس المساعد فارس نايف فايز
جامعة سومر

الملخص

لقد رافقت سحائب الموت التي ما انفكت تهطل على العراق، منذ بداية هذا القرن، وما آلت إليه من طوفان جارف، أغرق الأخضر واليابس، بدماء الضحايا والموتورين في الانعطافة التاريخية التي استبدل فيها الاستبداد والطغيان بالاحتلال، وما نتج عنه من خراب للنسيج الاجتماعي، أدام الانسحاق تحت مطارق القتل والوأد، أشكال أخرى من الموت تغلغلت في مفاصل الحياة، فشلّتها وعطلت جذوة طاقة الوجود الإنساني، وتجرع بها كائن هذه البلاد، كؤوس الموت، وهو على أكتاف الحياة ،ولما كانت الرواية من أكثر النصوص الأدبية قدرة على التعبير عن الحقل الاجتماعي الذي تنتمي إليه، تجسده من خلال اللغة وتكشّف عن أحشائه بلوحاتها التخييلية، وعوالمها الموازية للعالم المرجعي الذي تستنطقه، لذا فإن البحث يصبو لرصد تلك الأشكال من الموت المجازي التي رافقت الموت المادي، كإطلالة نقدية متواضعة، تعاضد الجهد الروائي وتدعمه.

ABSTRACT

I have accompanied the clouds of death that have been falls on Iraq، since the beginning of this century، and what became of him by the deluge sweeping، flooded everything and everybody، with the blood of the victims and Almuturan in historical turning point where the tyranny occupation was replaced، and the resulting destruction of the social fabric، Adam crunch Under Hammers murder، infanticide، and other forms of death permeated in the joints of life، Vhltha and disrupted the flame of energy of human existence، and swallow them this country object، cups death، which is on the shoulders of life، and what was the story of the most literary texts ability to express the social field to which they belong to him، embodied through language and reveal his gut Blouhadtha Altejealah، and parallel worlds Reference to the world that Tstntgah، so the search aspires to monitor those forms of metaphorical death that accompanied the physical death، Katalalh cash modest، mutually supportive effort novelist and supported by

المقدمة :

حصلت الرواية العراقية في أعقاب سقوط النظام السابق على فسحة من الحرية، تلاشت عنها، وجوه القمع والرقابة والمنع، فانطلقت نصوصها تجوب المناطق المعتمة، فلا تكترث بالإشارات الحمراء، ولا تتوانى عن الغوص في المكبوت، أو المسكوت عنه، تبوح بأقسى مظاهر الفجيعة الماكثة في الذاكرة،وتفضح وتعري منتجي الخراب، وصانعي الحروب، ودعاة الإرهاب ورعاته، بحس فني، وتشكيل جمالي شفاف، بعيد عن الخطابية والدعائية، والمضامين المؤدلجة، فكانت مشاهدها تاريخا ضاجا بالحقيقة، يعارض التاريخ الرسمي المزيف، وكان أبطالها من المقموعين والمهمشين، ومن المكتوين بسياط الظلم والطغيان، ولذا فإن البحث يعمد إلى تتبع تلك المشاهد، بمجموعة من المعالجات الإجرائية، تسعى جميعها إلى الوقوف على ألوان الموت المجازي، الذي تغلغل في الجسد العراقي، إبان ما يعيشه من حقب الظلام المتعاقبة عليه، وقد انقسم – البحث – على فقرات، كانت الأولى منها منشغلة بصور الخراب والانحدار الاجتماعي، وما تقشر عنه من موت القيم وتحطمها، والفقرة الثانية تتبعت مظاهر أخرى من الموت على قيد الحياة، تمثلت بالسجون والمنافي، وهي صور مقتطعة من بانوراما كبيرة من الموات المتفشي، والذي تحتاج الإحاطة به بين ثنايا المدونة الروائية العراقية إلى مجلدات لا تحصى من الأبحاث والدراسات.

أولاً : موت القيم

الإنسان كائن قيمي، أو هو بعبارة أخرى «موجود القيم»، فلولاها لم يتكون تاريخه الأخلاقي،

ولم يفترق عن غيره من الموجودات الحيوانية، إذ القيم هي همزة الوصل بين الطبيعي والتاريخ البشري[1]، بل «ليس ثمة وجود لهذا الكائن في عريه الطبيعي السابق على وجوده الأخلاقي»[2].

لذا عمل الإنسان جاهداً في سبيل إدراك القيم، وترسيم دروب النشاط الأخلاقي، فكوّن المثل العليا التي «وضعها نصيب عينيه لتلهب حياته كلها، وتملؤ كيانه حماساً، وتجعل لوجوده معنى»[3].

وحين تختلُّ القيم تصبح الحياة فوضى، وتعود أدراجها نحو المجتمع الغابوي، وتدخل في دهاليز الانحلال والتشوه والإعطاب، وليس هناك ما هو أسوء أثرا في عرقلة حركة القيم وتطورها من الحروب، والسلطات الكليّانية المستبدة، وما يرافقها من شرور ومآسي، والتاريخ الإنساني كله شواهد على ذلك، ولعل أقربها الحربين العالميتين، وما نجم عنهما من الآثار المدمرة فالتمزقات «الحادة التي أورثتها الحرب الأولى في قلب البشر- الكاسبين والخاسرين – تعدُّ أمرا تافهاً للغاية إذا قيست بالتمزقات الرهيبة التي عاناها القلب الإنساني مع إوار الحرب الثانية، وهكذا ازدادت مهاوي اليأس والفزع غوراً، وعمقاً في وجدان البشر، فإذا كانت ملايين العاهات قد غزت ملايين الجنود فإن ملايين العاهات النفسية قد غزت ملايين البشر»[4].

ولما كان تاريخ العراق حافلاً بالحروب والسلطات الجائرة الغاشمة، فإن المجتمع العراقي لم ينج من دمارا تهما التي خيمت عليه، فهزت منظوماته القيمية، وأحدثت فيها شروخاً لا ترتق، وما من شك بأنه في «عالم الاضطراب واختلال الموازين، ليس ثمة معيار ولا قانون، الكل يعيش تحت رحمة المصادفة»[5].

وبما أن الرواية هي أكثر النصوص الأدبية قدرة على التعبير عن الحقل الاجتماعي الذي تنتمي إليه، فيظهر من خلالها بشكل أجلى، وتكشف عن أحشائه ببعدها النثري الذي يخلق عالماً تخييلياً يتفاعل مع العالم المعيش بوساطة اللغة، فيمارس هذا العالم الورقي رؤيته للعالم الذي يشكل خلفية له ويعرضه بكل جزيئاته وتفاصيله[6]، لذا فإننا سنمسك ببعض خيوط الانحدار الحاصل في القيم في مجتمعنا من خلال معاينة مجموعة من النصوص الروائية التي مثلته.

في (رواية قشور الباذنجان)[7]نلامس سقوطاً لقيمة الأبوة ركن العائلة الأمتن، وخيمتها وملاذها، ودثار حنانها الدافئ، هذا التيار الإنساني الضامن لانبثاق الإيقاع الأول لوجود الذات، وبناء هويتها يتحول من صورته الحانية الرؤوفة المشفقة إلى صورة عدوٍّ قامع بدلاً من أن يظلل أبناءه بجناحيه يلقي بهم إلى مخاطر الموت في حياة صارت الناس تنهش فيها أقرب المقربين إليها «على شاشة التلفزيون رأينا بأنفسنا كيف قتل الأب ابنه الوحيد بحجة أنه لم يشارك في الحرب على إيران، ثم عرفنا الحقيقة بعد شهر واحد، حيث تخلص ذاك الأب القاتل من ابنه حتى يصفو له الجو مع زوجة ابنه الطرية الصغيرة، ويكون بذلك قد ضرب عصفورين بحجر واحد»[8].

يحدث مثل هذا حين ترعاه سلطة تشجع على القتل وسفك الدماء، فقد توج رئيس البلاد «تلك الجريمة بتكريم الأب السفاح فأعطاه بيتاً محترماً وسيارة مرسيدس»[9].

في الحياة يمكن أن نسمع بالأخ يغدر بأخيه، أو أن الولد يعقُّ والده ويمكن أن نرى والداً يهمل أولاده، أو يقصر معهم، أو يتنكر لهم لكن أن يقتلهم لا يمكن أن يحدث ذلك حتى في أسوء حالات انهيار العلاقات الإنسانية، والغريب أن هذا قد جرى في مجتمع تبلدت فيه الأحاسيس وتخشبت نبضاته الإنسانية، ويتصادى مع هذا الحدث ما يرويه السارد في رواية (منزل الغياب)[10]، وهو يحدث أصدقائه عن الحرب اللعينة التي خربت كل شيء في الحياة، وقوضت العلاقات الإنسانية، «وبات من شعارات الوطنية الجوفاء أن تكتب التقارير عن أقرب الناس إليك، وأن تبلغ عن كل من يهرب من الحرب حتى لو كان أخيك أو ابنك، وقد حدث كل هذا حين سلم الأب ولده إلى قوات الأمن وأعدم لأنه تغيب، ولم يذهب إلى الحرب»[11].

ولا يمكن أن نستبدل في مثل هذه المواقف المثال الأبوي المتردي بالمثال الوطني المُدّعى، لأن الحرب كانت عبثية، والسلطة التي أدارتها سلطة غاشمة هوجاء ديكتاتورية بعيدة كل البعد عن أي فعل وطني نبيل، ولم يجن منها المجتمع غير الويلات والانتكاسات، والدمار والمعتقلات، والأجواء المشحونة بالرعب والقلق والحيرة، وهي العوامل التي أدت بالأب في رواية (المحرقة)[12]، أن يسوق ولده «مروان» إلى سكك الموت والضياع خوفاً وحذراً من بطش هذه السلطة كبديل عن أخيه الشبيه «غسان» الهارب من الجيش ففي الوقت الذي كان يتوجب فيه على الوالد أن يحافظ على الولد الباقي عنده، ويحرص على مستقبله، ويجعله عوضاً عن ذلك المفقود المجهول المصير يدفع بالآخر إلى أودية الجحيم، ذوداً عن نفسه – الأب – واستئثاراً بحياته وهو ما عبر عنه الضحية باستحياء «أظن أن الأبوة المجروحة المختلطة بأنانية لم أعرفها من قبل هي التي تدخلت، لم يفقد صوابه إلا هذه المرة... فقد تركه أخي وهرب، وهاهو يدفعني لأكون وسط موت محتم من دون أن يشعر بذلك»[13]، ولم تكن المبررات التي يسوقها الوالد أكثر من الشعور «بالرعب كلما فكرت في أن أجهزة الحزب، والأمن تقتحم البيت وأجرجر أمام الناس، ليس سهلاً عليَّ أن أعرض نفسي للإذلال وأنا بهذا العمر»[14].

ولكنه يسهل عليه أن يدفع بفلذة كبده دونه لأنه يعيش في لجّة حياة أصبحت تحت وطأة مجرمين عتاة، وإزاء مثل هذه الظروف وإزاء «حالات العنف المتصاعد، والكبت وخلخلة الحياة فإن حب الذات يطغى على حب الآخر وتنتهي القيم والمثاليات، والكل ينظر إلى الكون من دائرته الخاصة ويعلو شأن المصالح الذاتية»[15].

وقد أجاد الكتاب الثلاثة حين جعلوا هذه القيمة – الأبوة – السامية تتهاوى في ظل ظروف شاذة، ومكتظة، بالاستلاب والنكوص، ما يقلل من صدمة المتلقي، ويجنب ذلك المثال السامق التشوه والاهتراء.

وفي رواية الحياة لحظة نقف على جملة من القيم المتهاوية التي أيسرها مرٌّ، وقد كان أعلاها ومركزها الإيمان، ونتعرف على اختراق هذه السجية النبيلة في جلسة سمر واعتراف بين بطل الرواية وصديقه، وهما في حالة من السكر الشديد، إذ كان السكر مدخلاً سوغ لكلا الشخصيتين الاعتراف بما ترك في أعماقهما من ندوب يظل قيحها نازفاً في دواخلهم ما عاشوا، السكر وحده

يسمح بالنفاذ إلى حكايات الانتهاك الذي تعرضا له، فهو انتهاك لا يقف عند حدود شخصيهما، وإنما يمّر عبرهما نحو أسمى المقدسات.

يحكي (شيركو)، بروح ملتاعة موجوعة، وهو يبكي بدموع، غزيرة للراوي عن الحادثة التي حصلت في طفولته حين أفقدهم اليتم معيلهم، فزجته أمه للعمل صباغاً للأحذية في السوق، ويشتكي للراوي بحرارة من سذاجة الأم التي أنهكته « شكوت لها مضايقة الكبار في السوق في الليل والنهار.. لم أفصّل»[16].

وهي صورة تومض عن مجتمع يدعي الطهرانية، ويخفي أبشع أشكال الشر والانحطاط، فقالت له : لن تذهب لصبغ الأحذية، فرح بالخبر وبدأ يتخيل ساعات المرح واللعب التي حرمت منها طفولته المقتولة، ويفكر بالأوقات التي سيقضيها مع أصحابه بعد وقت المدرسة، وأشبعها – أمه – قبلاً لقرارها الرحيم الذي سيخلصه من ذلك الهم العنيف، ولكنها أردفت عليه بوجه سعيد بأنها وجدت له عملاً موسمياً مع رجال أشراف يختلفون عمن رآهم في السوق، رجال ورعين متوحدين مع الخالق يجوبون قرى كركوك من دراويش الطريقة القادرية، فهو سيكون خادماً للشيخ في جولاته بين القرى[17]، وحين حزم أمره ورحل معهم «بعد ليلتين بعث الشيخ في طلبي بعد منتصف الليل.. وراح يحدثني عن العفاف والصوفية والكون الغامض، وطهارة الروح، كلمات من العسل جعلتني أتأرجح على حافة النوم لقد وجدت بوجه الشيخ وجه نبي ما جعلني أغفو بعمق في حضرته.. لكني استيقظت موجوعاً مختنقاً لأجد... الشيخ القائد يخنق أنفاسي فوقي بكل ثقله، وكان قد جردني من كل ملبسي حقدت على أمي التي دفعتني إلى تلك اللحظة، اغتصبني شيخ من شيوخ الطريقة القادرية»[18].

البشاعة في هذا الجرم أنه حدث في مكان مقدس، ومن رجل تلبس بالقداسة زوراً، يدعي الإيمان والتدين، وهو منافق شاذ أغواه الشيطان وهو «المنذور – بقوة موقعه الاجتماعي – إلى مطاردته فسقط في المحضور مما عكّر المشهد وعمّق الخدوش»[19]، فبينما كان يفترض بهذا الشيخ حراسة القيم والانصهار بها، نجده يخيب أفق ثقتنا فيه وينزو على الطفل البريء اليتيم فيسقط قناعه، وتنفضح ادعاءاته الروحية أمام التهالك على اللذة الحسية وإشباع رغباته الجسدية المنحرفة، ولا يدري أن خطيئة أمثاله من مزيفي القداسة والورع «تغدو بطعم الغصة»[20].

يجد الراوي في مأساة صديقه فرصة للبوح ليخفف عن نفسه وطأة الهم، فقد تعرض لنفس المأزق في يوم مقدس ومكان مقدس أيضاً، وكان ذلك أيام طفولته البعيدة فحدثه : « حينما سهرت مع رفاق طفولتي حتى الصباح، وفيما كنت أشاهد تفاصيل المقتل غلبني النعاس وسط الزحمة، ففكرت في العبور إلى مدرسة قريبة فتسلقت السياج، وفي الرواق رقدت على البلاط البارد، كان الوقت صيفاً وعلى إيقاع معركة الطف ونحيب النسوة غفوت لأستيقظ على ألم في مؤخرتي ألم شديد كان عمري وقتها ثماني سنوات، لم أجرؤ على فتح عيني ظللت أنصت وأنا في أقصى حالات الرعب إلى اللهاث الغريب المنصب من خلف رقبتي مستسلماً عاجزاً إلى أن خفت، فرأيته رجل بعمر والدي وسط مكتب مدير المدرسة أدركت بعد

ذلك أنه كان الحارس الذي جعلني مضطرباً شكاكاً بالبشر كل العمر»[21].

لقد حشد الراوي رموزاً مهيبة يعدّ انتهاك أي واحد منها مؤشراً لمحمولات خطيرة (الطفولة/التكية/المدرسة/عاشوراء/مكتب المدير/الحارس) تفصح عن واقع يزخر بالغثيان والعبث والعار، واقع يستبطن تزعزعاً حاداً تسرب الانحدار إلى كل مفاصله وشمل كل حقوله : الدينية والمعرفية والأخلاقية، ولم يفت الروائي أن لا يحصر الخلل في طائفة دون أخرى (الطريقة القادرية، عاشوراء)، أو قومية دون أخرى (شيركو، إبراهيم) وهما ابن كركوك، وابن الديوانية، إذ البلد بأكمله محاط بسحائب الانحطاط والمسخ والانكسار نفسها، فالحروب شملت الجميع، والحصار طال كل البيوت، ومراهقي السلطة مشغولين بنزواتهم ومصالحهم الخاصة، وهي سياقات تفرز أعتى مظاهر التدهور والاضطراب الاجتماعيين.

وتتعرى أمامنا الخيانة لوحة فجّة القسمات والملامح، لتصدمنا بقصص وأد العفة والوفاء والصداقة والجيرة والحب، المعاني التي ينضفر بها النسيج الاجتماعي المعافى، وتضفي عليه أروع الألوان وأبهاها، وتمده بأنفاس الحياة الهانئة المطمئنة.

ففي رواية (قشور الباذنجان) مرة أخرى تتحرك أمامنا الشخوص بمشهد تخون فيه الزوجة زوجها، والصديق يخون صديقه «حيران مثل أخوك، لن يزعل عليك إذا انتظرته في البيت حتى يعود. مشيت خلفها نحو الصالة، بيني وبينها أقل من مترين، أكاد أراها عارية بذلك الشيفون البرتقالي الذي يشير إلى مفاتنها، بل هي عارية فعلاً في مخيلتي، ماذا جرى في عقلي ؟ لم أكن هكذا أبداً، يربطني بصديقي حيران رباط مقدس منذ أعوام الصبا، فكيف أحدق في زوايا زوجته بهذه السفالة»[22].

وتغويه المرأة - زوجة الصديق - بالألفاظ الموحية، فضلاً عن اللبس الفاضح : «جلست على كنبة عريضة، رأيت أنيسة تبتسم : شاي ؟ أم تحب اليوم شيئاً آخر؟»[23].

ثم تختم الزوجة فعل الخيانة بعبارة تثير فينا أكثر من سؤال : «منذ سنين أيها المغفل الكبير، كان عليك أن تفعل هذا»[24].

لماذا منذ سنين عليه أن يفعل هذا ؟ هل كان البطل/الراوي يحمل حصانة جعلته يصمد ويقاوم بوجه الانهيار الاجتماعي الذي يحيط به ؟ أم هل كان ساذجاً حد الغفلة والبلاهة، فلم يفهم النداءات الشهوية المختلسة، أو يدرك بأن القيم التي يتمسك بها اكتسحها تيار الانحراف الجارف، وصارت من أحاديث الماضي الغاربة.

وبفداحة أبشع يتكرر هذا المشهد في رواية الحلم العظيم[25]، إذ نلقى شخصاً يروي غزواته الجنسية مع زوجة جاره الفقير المنهك والمتعب في لقمة العيش، ولا يكتفي بهذه العلاقة المنحرفة، وإنما يضيف إليها مغامرات أخرى في بيت آخر هو بيت صديقه الذي فتح له قلبه وبيته وقد منحه ثقته العمياء، فيقيم علاقة جسدية شاذة مع زوجة أب الصديق ومن بعدها أخته[26].

إن مجتمعاً يتسرب الخراب إلى عراه التي تمسكه ما الذي يبقى فيه ؟ ماذا يبقى بعد الصداقة وقد فتتها هذه الممارسات السقيمة ؟ بعد أن كانت تعني المشاركة في الهم، والمشاركة

في الأمـل، وتمثل سر ديمومة الاتـزان وذخيرته داخل الفرد الذي يعيش في مجتمع كل شيء فيه صائر إلى الانحطاط[27].

وماذا يبقى بعد تفكك الأسرة ومؤسسة الزواج، الخلية الأولى والأس الرصين في بناء العلاقات الاجتماعية، وإذا كان الإنسان كائن اجتماعي فهل هناك مجتمع بدون زواج قوامه العفة والوفاء ؟

بالتأكيد لن يكون هناك غير العلاقات المزيفة الواهية الهشة المبطنة بالغش والخديعة، البراقة من الخارج، المنخورة المتهرئة من الداخل.

إن هذه العلاقات الجنسية المحرمة ناجمة عن مناخات يملؤها الفراغ الإنساني والإحساس بالغربة، والقهر فيها ظاهرة طبيعية ومستديمة، فلا يبقى في ظلها انتماء حقيقي، ويصير الاستلاب هاجساً يدفع الإنسان نحو دائرة مغلقة هي ذاته، فيتحول إلى الداخل، ويصير فضاء الجسد هو الفضاء الذي يختصر كل الفضاءات الأخرى السياسية والاجتماعية والإنسانية[28].

ومن هنا تكون البنية الاجتماعية الشائهة نسقاً دالاً على السياق السياسي والاقتصادي الذي أفرزها، وما ترسب عنه من إخفاقات متجلية في تحديد المفاهيم الجنسية وبلورتها باتجاه تشكيل العادات التي تكون غير طبيعية وشاذة وتقود إلى البغاء واللواط أو المساحقة أو الخيانات[29].

تقول فاطمة المرنيسي : « إن الشهوة الجنسية إذا وجهت الوجهة السليمة فإنها تسهم بطريقة إيجابية في تشييد النظام الاجتماعي في حين أن بإمكانها تهديم هذا النظام إذا كبتت، أو استعملت الاستعمال السيئ»[30]، فالجنس إذا لم يعد علاقة بيولوجية حسب، بل علاقة اجتماعية تحدد بالأعراف والتقاليد الناظمة في المجتمع وتفرضها ظروف موضوعية[31].

إن هناك عاملاً مهماً يمكن أن يكون صمام أمان لو توافرت عليه أطراف العلاقة الزوجية، إنه عامل الحب، إذ ليس هناك ما هو انجح منه في حفظ الكيان الإنساني، فهو الأقدر على ديمومة العواطف المخلصة النبيلة نقية متأججة، لأننا عند الحب نفسح للآخر مكاناً كبيراً في أعماق نفوسنا ونضع أنفسنا تماماً تحت تصرفه، ونتفانى في خدمته، وهذا هو السبب الذي يجعل الحب يقترن بالإخلاص والتفاني والوفاء والثقة والإيمان وغير ذلك من القيم الأخلاقية النبيلة[32]، ويبدو إن هذه القيمة – الحب –لم تسلم من الانهيار والتردي كما مّر، وقد عرضت روايات أخرى للخسائر التي تمنى بها علاقات المجتمع على أثر ذلك التردي من ذلك رواية (غايب)[33]، حيث تكتشف البطلة/دلال أن الشخص الذي أحبته ووثقت به ومنحته حبها وجسدها كان يتخذها جسراً للتجسس على خالها، وأن اسمه لم يكن (عادل)، وإنما جمال، وهو ضابط في أمن النظام[34]، وقد تسلل إليها من خلال صديقها (سعد) صاحب صالون حلاقة النساء، الذي تكتشفه هو الآخر وكيلاً للأمن، وقد أعترف هو لها بذلك – سعد – وكشف لها عن هوية حبيبها المزيف مدعياً أن السبب الذي دفعه إلى التجسس هو ضيق ذات اليد والعوز المتأتي عن الحصار.

إن فقدان الحب هو الذي أنتج تراجيديا مجتمع النصوص، فصار الجار يقتل جاره، ويهجِّره، وتصاعدت النعرات الطائفية والعصبيات القومية، وتفشت الجرائم، وشاع القتل على الهوية

الأمر الذي عرض الباحث جانباً منه في النماذج التي درسها في مبحث الإرهاب.

ثانياً: الموت في الحياة:

وهو أن يكون الإنسان حيّاً، لكنها الحياة التي أطبقت عليها المناخات الكامدة، والخسارات المتلاحقة، وافتقرت إلى دعامات الانسجام والاتزان، فهي تتجه إلى مزيد من الانطفاء والتآكل والميتات المجازية، ولعل من أظهر المؤديات إلى ذلك:

- السجن

ترتهن فكرة العلاقة بين السجن، والموت الذي يتبدّى منه ويغمر السجناء على مبدأ الحرية، إذ الإنسان الموجود الوحيد الذي ينحصر وجوده في حريته، فإذا غابت الحرية تلاشت مع غيابها خياراته وحين ينعدم الاختيار ينعدم الوجود، وهي الفكرة التي أكدها الفيلسوف "يسبرز Jaspers"عندما استبدل مقولة ديكارت المعروفة:«أنا أفكر فأنا إذن موجود» بقوله: «أنا اختار فأنا إذن موجود»[35]، فلا ريب أن الإنسان حين لايكون حراً يصير موضوعاً أو شيئاً[36]، وقد «ارتبط السجن منذ البداية بالاستعباد ليكون أداة أساسية من أدواته لا تنفصم عنه ولا يستغني عنها في أية مرحلة من مراحل التاريخ، أداة صارت نموذجاً مصغراً للاستعباد الذي يعيشه البشر حتى اليوم، حتى وإن لم يعودوا عبيداً يشترون ويباعون في سوق النخاسة»[37].

وكيف لا يكون مستعبداً من يحرم من أسرته، ومن أصدقائه، ومن عمله، ومن أي نشاط ثقافي أو اجتماعي، من كل مفردات الحياة الأخرى: الترفيه، الموسيقى، رؤية الطبيعة، من تقرير وقت نومه، من اختيار قيامه وجلوسه، علاقاته، من كل ما يجعل الحياة حياة[38]، وما الذي يبقى لمن يتحرك في مساحة يشتد خناقها عليه كالطوق ؟، ويظلله زمان رتيب راكد آسن، وكل ما حوله يتأبى على الاختلاف، ويركس في السكون والتكلس، لن يبقى له غير التبلد والضمور، لأن «وظائف الإنسان ليست مستخدمة، ضيق السجن يجعل الخطوة بطيئة وقصيرة وفاقدة للحيوية، السجن هو أن يعيش الإنسان ربع الحياة أو ما هو أقل منه»[39].

إن السجن بآثاره غير الإنسانية المزرية، شُغِل به الأدب، وتتبع أدق محاوره حتى صار له أدباً قائماً يعرف بأدب السجون، ورواية صنفها النقاد برواية السجن، وهما أدب ورواية اقتربا كثيراً من الشهادة على الحياة في أقبية السجون وزنازينها، ومعازل العقاب، ومكابدات التحقيق وما تخللها من حالات السقوط والانهيار، والامتهان والانتهاك، وألوان التعذيب الوحشية والبدائية[40].

تندرج رواية (مجانين بوكا)[41]، ضمن هذا النسق من الكتابة، فهي مشغولة بسؤال السجن من ألفها إلى يائها، وتتقشر صفحاتها عن أبشع ألوان التنكيل والامتهان والإيغال في الإجرام والمحو الإلغاء، في سرد يمتزج فيه: المحكي الواقعي بالمحكي التخييلي، ويضعنا الرواي من خلاله على أبواب الواقع المستعر ومنذ الكلمات الأولى من الملفوظ السردي حيث يخبرنا أن سبب تسمية السجن هي تخليد لذكرى المارشال الإطفائي الأمريكي الجنسية الأسباني الأصل "بوكا" الذي كان يعمل في دائرة إطفاء نيويورك، وقضى نحبه في الهجوم على برجي التجارة أثناء محاولته

إخماد الحريق في الطابق الثامن والسبعين فهو يحمل علامة ثأر وانتقام تجعل الجنود الأميركيين يستذكرون الحادث فيزدادون عنفاً وحقداً تجاه المعتقلين[42].

تتراوح أيام السجن بين موت وموت، ويقضي المساجين ساعاتهم في الحجز، أو السجن الانفرادي، أو الإزعاجات الليلية بحملات التفتيش المفاجئة والتعددات في وقت متأخر من الليل، أو بإلقائهم في الجحيم حين تكون عقوبة أحدهم النقل إلى "كامب" التكفيريين الذي يفرضون عليه طقوسهم العجيبة[43].

يقول الرواي: «نعيش على قيد الحياة، ونعيش الالآم وما أبرحها في حظيرة وحوش يموت البشر هنا روحياً كل صباح»[44]، ويمضي الراوي في سرد حكايات العذاب المتصل بمحكي ملتاع ضاج بألوان القهر والإهانة واحتقار الإنسان، والقوانين الإلهية والبشرية، وأفعال كل هدفها تحطيم كينونة الإنسان، وإلغاء هويته «لا شيء يمكن أن أنساه من تلك السنوات حتى لو مّر عليها عشرون عاماً»[45].

إنه الموت المقسط على جرعات، والغريب في أهواله وفجائعه، ولاشك بأن الموت المعنوي، أو النفسي يكون أشد من الموت الفسيولوجي[46]، ويتجلى هذا الموت النفسي في كل شيء، في الأسماء التي انمحت حتى من ذاكرة أصحابها وتحولت إلى أرقام «كانوا يرفضون أن ينادونا بأسمائنا التي امّحت، وغابت حتى عن أذهاننا، ولم نعد بحاجة إليها، وبمرور الزمن تحولنا إلى أرقام تدل علينا»[47]، وفي التنكيل والإبادة البطيئة وعمليات التدجين، وفي تدمير كل ما يشكل عند السجناء مقدساً، ويستمدون منه احترامهم لأنفسهم، أو يبقي لديهم الشعور بالكرامة، ولقد عمدوا إلى إلغاء إنسانيتهم بكل الأساليب والأدوات، وجعلوا من أجسادهم عبئاً عليهم، إذ تحولت هذه الأجساد ملكاً للجلاد ولعبة بيده، فأول الأشياء التي تموت عند السجين «هو الجسد لأنه سيصبح ملكاً للجلاد وليس للضحية يتحكم فيه ويستعين به على إرغام صاحبه، وماذا يبقى للإنسان بعد أن يصير كيانه ملكاً لسواه الذي يتفنن بالاعتداء على حرماته»[48].

إنهم يطلقون الكلاب عليهم في أوقات الصلاة، وهم يعرفون ماذا تعنيه نجاسة الكلب عند العرب والمسلمين، ويجبرونهم على الاستحمام معاً وهم« يعرفون ماذا يحمله ذلك من إهانة لنا لقد كان تعذيبنا ثقافياً، المرحاض هناك كان مفتوحاً ولم يكن لنا خيار سوى أن نجلس أمام ثلاثين نزيلاً والحارسات يراقبننا»[49]، وكانوا أكثر الأحيان يمنعونهم من الذهاب إلى دورة المياه على الرغم مما فيها من إذلال، وإهانة وفضائحية «يمنعونا من دورة المياه، ولم تشفع لنا توسلاتنا حيث اضطر عشرات منا لقضاء حاجاتهم في ملابسهم»[50]، فضلاً عن الاغتصاب والسباب بأقذى عبارات الابتذال، وألفاظ الرذيلة، وإجبارهم على ما يترك في الروح صدوعاً غائرة وجراحاً نرجسية لا تندمل «تعال يا كلب مص، ينزل الجندي ضاغطاً على رأس الضحية بمستوى وسطه، وهو يصرخ ابلع يا كلب ابلع»[51].

إنه تعذيب مبرمج لا يقف أذاه على ما يولده

من الآم جسدية، وإنما يمتد إلى دلالات ثقافية تكون أصعب إيلاما، تُحقِّر الضحية وتُذلّها، وتجردها من معانيها الإنسانية، فالاعتداء على الأعضاء التناسلية والاغتصاب، وتعرية الأجساد، وسباب الأم والزوجة، وإحاطة السجين بالقاذورات من بول وبراز كلها أعمال يسعى من خلالها الجلاد إلى استلاب إنسانية السجين وتجريده من أي حيز من الخصوصية الجسدية، وأي حدود لحرمة الجسد خارج سلطة الجلاد، ما يؤدي إلى إثارة العار الثقافي، وتحطيم صورة الذات، والنيل من رجولة المعتقل وكرامته وإشعاره بأنه أحط شأناً من أن يحتفظ بشرف أو طهارة، أو يذود عن زوجة وأم، ثم تحويله إلى ما يشبه الأنقاض الوجودية المثخنة بالصدمات والصراعات والاضطرابات الجسدية والنفسية والاجتماعية[52].

كل أشكال التعذيب التي يقاسيها المساجين تسعى إلى فك الارتباط الإنساني، والنظر إلى الآخر على أنه عدو لا يمكن الاشتراك معه بأي وشيجة أو صفة كانت، ولعل أظهر الأدلة على ذلك هو استعمال الموسيقى وسيلة للتعذيب، الموسيقى تلك اللغة الإنسانية السامية العابرة للحدود والأجناس، وذلك الفن المتعالي الشفاف الذي يناغم كل الأرواح بلا فاصل من لون، أو عرق، أو دين، أو لسان، تتحول إلى مطرقة للترويع والجنون كمطارق القرون الوسطى التي يضرب بها على السجين الموضوع في كرة معدنية من أجل أن يفقد عقله «أطبق الصمت علينا كما لوقطرناه من كل ضجيج العالم، وجمعناه هنا في هذه الحاوية الجاثمة على الرمال الساخنة والمتوهجة نحو الشمس، ماذا عن هذه الموسيقى الصاخبة التي تشق طبلات آذاننا وتصل إلى قاع رؤوسنا لماذا الروك والميتال»[53].

إن الرواية شهادة صارخة على تجربة مرة ومؤلمة، ووثيقةأسقطت القناع عن دعاة الحرية والتقدم والمساواة المزيفين، وعرت أفعالهم وفضحت كذبهم ودونيتهم وشعاراتهم البراقة.

وفي رواية (ثلاث عشرة ليلة وليلة)[54]، صور لا تقل سادية وفظاعة عن صور مجانين بوكا، وهي رواية تتشرح على صفحاتها النفس البشرية بما تكتنهه من قدرة على التسلط والوحشية والسادية، أو بما تنطوي عليه من قوة التحمل والمقاومة والضعف البشري الذي هو سمة أصيلة في البشر.

السجانون هذه المرة أبناء جلدة السجين من أزلام السلطة الغاشمة، يرى السجين على أيديهم أهوالاً لكونه ينتمي إلى حزب معارض، هذا الانتماء يجعله يتلقى من صنوف العذاب وبشاعته ما يصعب على السامع تصديقه «لم يكن ثمة غير الظلام فشككت بأني فتحت عيني أساساً فأغمضتها، وأعدت فتحها على وسعها رغم الألم، ولكن بلا جدوى.. احتجت إلى ثوان طوال حتى ألفت عيني الظلام... لم يكن عرض هذا المكان أكثر من متر واحد في أحسن الأحوال ،، فيما حولي فاستطعت أن أتبين بصعوبة طول هذا القبر الذي لا يتعدى المترين»[55].

وبعد تقلب ما بين حفل تعذيبي وآخر،

وحكايات من الجوع والآلام، وألوان من السباب والشتائم، والتخبط في القاذورات، وصنوف من الإذلال والإملاءات والممنوعات والتقنين الصارم للطعام والماء، والانتهاكات المتوالية للجسد كي يمر المعتقل بصنوف من الموت التعذيبي الذي هو فن إمساك الحياة في الوجع، وذلك بتقسيم الموت إلى ألف موتة[56]، يفاجأ السجين بما يذهله من انحطاط الجلاد وخسته ونذالته «وصلت اليد إلى أسفل ظهري وبدأت تتحسس مؤخرتي.. لم أصدق في البدء أن يصلوا إلى هذا المستوى، ولكن لِمَ لا ألم أشهد بنفسي مدى انحطاطهم الأخلاقي»[57].

عند هذه النقطة تنهار إرادة الإنسان، وتتكسر صلابته، وتتزعزع مقاومته، فيفكر بموقفه أمام نفسه وأمه وأمام حبيبته، وبتاريخه النضالي، وكيف سيبقى بعد هذا ؟ فيختل توازنه، ويعجز عقله، عن مواجهة الموقف فتتهاوى معنوياته ويخبو الأمل «فتهاويت على ركبتي ونحتُ :

– سأخبركم بكل ما تريدون... فقط ارحموني

في تلك اللحظة شعرت وكأن شيئاً ما كسر نهائياً في داخلي»[58]

وهكذا يحطمون إنسانيته، ويخلخلون مبدئيته ويجردونه منها، فيموت فيه ذلك الإنسان المعارض المختلف معهم، ويصنعون مكانه شخصاً امتثالياً يعيدون تشكيله كما يرغبون هم، لا كما يريد هو، ويتحول من عقبة إلى أداة طيعة بأيديهم، فيغيب «الإنسان الذي خلقه الله ليحل مكانه الإنسان الذي خلقه الحاكم، إنسان رفات فتات كائن مستباح»[59].

- المنفى

يعيش المنفي بهوية عائمة ومنزاحة على الدوام، لايمكنها أن تتخذ لبوساً كاملاً، أو تنسب لانتماءات نقية لجانب من جوانب الإزاحة التي تتأرجح بينها، وإنما قدرها البقاء على هاجس من الانشطار على تربتين، لأن المنفي شخص مقتلع مجتث «اقتلع من المكان الذي ولد فيه لسبب ما، وأخفق في مد جسور الاندماج مع المكان الذي أصبح فيه، فحياته متوترة، ومصيره ملتبس، وهويتآكل باستمرار، ولا يلبث أن ينطفئ، فالمنفي ينطوي على ذات ممزقة لا سبيل إلى إعادة تشكيلها في كينونة منسجمة مع نفسها أو مع العالم»[60].

إن عالم المنفي عالم إنساني مخرب «تكاد تقوضه صروف الحياة : نعماؤها وبأساؤها على حد سواء، ناسه معلولون يحملون بذور تدميرهم في نفوسهم، ويمضون نحو مأساتهم في إصرار»[61]، وذلك لما يحدثه فيهم المنفى من بتر وتشويه وما يجره من خسران، وضياع على ضحاياه، إذ المنفى كالموت، والمنفى والسعادة لايجتمعان[62].

ولا ينكر بأن المنفى قد شكل حلماً ويوتوبيا لكثير من القاطنين فيه، وأنه كان مرساة أمان لمن هربوا نحوه من فجائع الحروب، ونير السلطات الباطشة، وأنه احتوى منافع كثيرة تساهم في اختلاط الأعراق، وانتقال العلوم والمعارف

والثقافات، وتحسين الوضع الاقتصادي، وربما تتوفر فيه مناخات وفرص للثراء والترف، ومحطات لتمرير الرغبات الدفينة، والنزوات المقموعة، لكن حتى هؤلاء، أي الذين وجدوا في المنفى غاياتهم ومبتغاهم ليسوا بمنأى عن جراحه، وأخاديد المرارة التي يحفرها في أرواحهم، فهذا الشاعر المغترب، هادي ياسين يعبر بصدق عن الفجوة التي لا يمكن أن تردم على الرغم مما قدمه له المنفى من سبل الحياة الهانئة، إذ يقول : «كل ما حلمت بامتلاكه موجود لدي الآن من تكنلوجيا متطورة، ومن خدمات، ومن سكن لائق، ومن مال متوافر، ومن رفاهية اجتماعية، لكنني أعيش أتعس أيامي وسط كل ما حلمت به، وأتمنى يوماً واحداً أعيش فيه كما عشته سابقاً في العراق»(63)، ومثله الشاعر سلام وادي، والقاص زعيم الطائي، حين يسألون ترغبون بالعودة ؟ يجيبون ليتنا نفعلها بالأمس وليس اليوم(64) !

ويبدو هذا الإحساس المروع في أجلى صوره في هذا المقتطف من الحوار الذي أجراه الناقد «حسين سرمك» مع الروائي العراقي المغترب علي عبدالعال، إذ يجيبه الروائي «المنفى أكثر وجعاً مما تتصور، في المنفى أصارع جدران زنزانتي كالمحكوم بالسجن المؤبد، الرجل المنفي مختل نفسياً ويعيش حالة ترقب دائمة كحارس ليلي بلا سلاح»(65)، ومع أنه يصف له بأنه يعيش في ظروف جيدة، وحالة مقبولة من الرخاء، إلا أنه مع ذلك يبقى لا يشعر بذاته الحقيقية سوى كمنفي عن بلده الأول، وكل النجاحات التي حققها والأعمال، التي حصل عليها لا تردم ذلك الإحساس الغريب لديه، ولا تقلص الفراغ الروحي عنده «صدقني وبكل بساطة لو كنت أقتني مسدساً لكنت انتحرت من زمان، هكذا وهو شعور راودني فترات من الزمن على كل حال، كما تراود فكرة الانتحار بعض الأفراد عند بلوغهم مرتبة اليأس والقنوط»(66).

وهذا الإحساس الممزق المتصدع نفسه الذي أدى بـ (شهاب) أحد شخصيات رواية (القنافذ في يوم ساخن)(67)، إلى العودة إلى العراق مع ما يكتنفه قرار العودة من مخاطر وتهديد للحياة، وقد كانت النتيجة بالفعل هي القتل على أيدي الجماعات الإرهابية «عدت من المنفى وأنا مدرك ألّا عودة لي منه، لأنه يجدد نفسه في كل تماس مع ما هو مألوف، أو غير مألوف، وسوف تلازمني أشباحه كما تلازمني أشباح الوطن، كل رجوع عن المنفى تعميق لجذوره وإيهام بخفاياه، أي أوجاع سرية يورث المنفى، أي شفاء يحمل الوطن»(68).

إن الجراح المكتظة بالآلام الممضة المتوارية خلف هذه المقتطفات أعربت عنها أكثر من رواية تقصت مرارة المنفى في نفوس شخصياتها وتحدثت عن ما تعانيه من خدوش، وتشظيات، ولواعج نفسية تستبطن عوالمها الجوانية، وما يعصف بها من قلق وخواء في المحيط الذي تتساكن مع أهله اللافظين لها، والممانعين في ذوبان العوالم الفاصلة بينهم وبينها.

من هذه الروايات رواية (تحت سماء

كوبنهاغن)[69]، وهي رواية ذات محكي منشغل بالمنفى طافح بكل ما يعج به من رغبات الاشتياق والحنين، ويقتفي آثاره الأخرى من صعاب الاندماج، والشعور بالإبعاد، واللفظ والتنحية والإقصاء، وكشف خبايا مشاعر الآخر الذي يضمر في أحايين كثيرة نوازع عنصرية، وكراهية لا تلبث أن تظهر، وتتسرب نحو الوافد مهما تبجح - الآخر - بالمساواة والتعايش، ومهما منعته اللوائح والقوانين الصارمة، فلابد أن تتعرى الأشياء، وتنفلت همهمات التمايز، وتنكسر مرآة الألفة الخادعة.

وأولى أشكال الإقصاء التي تنقلها الراوية/ البطلة، هو انكماش زميلها في المدرسة وتهربه منها ومحاولاته في تحاشيها، والتعلل بالحجج الواهية في الامتناع عن اللعب معها إلى أن يفصح لها يوماً بأن جدته تحذره من الاختلاط مع البنات السمراوات ذوات الشعر الأسود والعيون السوداء، فيترك هذا في داخلها ندوباً تظل تؤرق ذاكرتها وتعصف بمشاعرها، ومما يرسخ حزنها وانكسارها اصطدامها بالمزيد من مواقف الرفض والنبذ «كان لابد أن تمر سنوات كثيرة لأعرف أن اغترابي يعدُّ عوقاً ولدتُ به، وتأقلمت معه دون أن أعرف لذة انعدامه... لكنني بقيت لا أدري ما يعنيه أن أرى الدنيا دون إعاقة الغربة»[70].

ترتفع الرواية بوصف الغربة إلى الحد الذي تجعل منها عوقاً، وهذا العوق هو عطب روحي، يكرس من فظاعة وضع الإزاحة المتواصلة، والتي تشبه الجرح الذي ينكأ بين حين وآخر «عندما أمشي في شوارع كوبنهاغن الخالية، وأقابل سكراناً أو حشاشاً يشتمني، ويطلب مني بكلمات تترنح بين شفتيه مغادرة البلد لأنه ليس بلدي مغادرة بلد لا أعرف سواه بلداً وملجأ حقيقياً لي.. عندما يحدث مثل هذا معي يثقل ضميري بمشاعر المهانة، والسخط من حياتي بأكملها... ويؤنبني بشدة لأني لم أجرؤ على الرد ولو بكلمة واحدة أعيد معها شيئاً من كرامتي التي هدرت، وهي تتراقص على شفتي سكران»[71].

في هذا المجتزأ حزمة من الإيحاءات القابعة خلف المنطوق الظاهر والمُعلن صراحة عن اللّفظ والنبذ والطرد، إذ يومئ المتواري بقيمة الأوطان، وهشاشة الأرضية التي يقف عليها أبناؤها عندما يقطنون بعيداً عنها، ما يعني أن قدر المنفي أن يكون قانعاً بوضع برزخي لا يشبه أرضه المتحول عنها، ولا يمكّنَه من الهبوط على أوطأ درجات الجنان التي يحلم بها، فهو في حالة عائمة قلقة وسديمية حتى لو مّرت منه أجيال طويلة، وشاهد ذلك في عصرنا العراقيون الذين هجرتهم الحكومات المتعاقبة من اليهود، ومن الذين قيل عنهم تبعية إيرانية على الرغم من أنهم عاشوا في البلاد أجيالا متعاقبة امتدت لمئات السنين، وأنهم اندمجوا، وانصهروا في بوتقة المجتمع العراقي حتى ذابوا فيه لغة وأعرافا وثقافة وعادات وتقاليد[72].

وتأتي في هذا الباب رواية (طشاري)[73]، وهي أيضاً ذات محكي ينغمس بنفس الثيمة، فيعبّر عن (النوستالوجيا) المشحونة بها أرواح المنفيين ويبسط معاناتهم، ويصغي لآهاتهم التي تنزّ

بالحزن، والذكريات الموجوعة «إن كندا جميلة، وآمنة لكنها باردة وبعيدة، بعيدة عنكم أكثر من اللازم، كأن الذاهب إليها يموت وهو في الحياة، يفارق أهله فلا يرونه ولا يراهم، أو يسمعهم إلا في الصور وعبر الأسلاك، ماذا تفيد الفرجة بدون لمس وأحضان ولثم وشم»[74].

بهذه الوسائل يتصل المنفيون بأهلهم عندما أتاحت لهم التكنلوجيا اليوم التخاطب المباشر بالصوت والصورة، أمّا حال المنفيين قديماً فكان الانقطاع والتلاشي التام في عالمين لا يمت احدهما للآخر بأية وشيجة، ولكن اللقاء بالأحبة بالأولاد والآباء والأمهات والأخوة والأصدقاء عبر الأجهزة الحديثة هل يغني المشتاق، أو يطفئ ظمأ الأرواح الملهوفة، والملتاعة، وهل يرد للنفوس المتخلخلة اتزانها وانسجامها ؟

إن النفي لا يقف عند هذه الخسارات فقط، إنما يمتد لما هو أبعد منها، لما يُشعِر بالموت على قيد الحياة «العمارات الباريسية محكومة بالهدوء، الكل يمارس رياضة الهمس وراء الأبواب المغلقة والمحصنة بعدة أقفال مدعّمة بأشياش عمودية، وإطارات من حديد، إنه لا ينسى كيف أن جارة لهم استدعت البوليس لأن أباه كان يصرخ في الهاتف وهو يتحدث مع أخيه في بغداد، وبغداد بعيدة والأب يريد أن يوصل كلامه حرفاً حرفا، مازال يذكر أيضاً ذلك اليوم الذي تلقت فيه أمه خبر وفاة والدها بالتلفون أيضا. اضطر أبوه لأن يضع كفه على فمها لكي لا تلمّ عليهم شرطة باريس كلها»[75].

هذه السطور تنقلها لنا الدكتورة «وردية» الشخصية المحورية في الرواية وهي تراقب إسكندر الطفل الصغير وأمه التي تكون ابنةأخيها يتخاطبون بأصوات هامسة نزولاً عند نظام المجتمع المضيف، فأن يكون المرء منفياً يعني أن يلتزم باشتراطات بيئته الجديدة، ويخضع لها، ولايحيد عن الضوابط التي تمليها عليه وهذا جزء من التغييرات التي يمليها المنفى في الحياة والظروف والأفكار والأحلام، وحتى طريقة النطق ومستوى الصوت.

لاريب أن حالة الاقتلاع التي يعيشها المنفي تدفعه إلى التشبث بكل ما يشده إلى أفقه الإنساني الحميم الكامن هناك بمكان اسمه الوطن، الذي يرى نفسه مغيباً عنه، فيظل يرنو إليه حتى آخر لحظة في حياته بل حتى بعد مماته :

« – عمّه ألا تحبين باريس ؟

– أحبها لكنني لا أريد أن أموت هنا، وأدفن في فرنسا

– هاي هي المشكلة

– كلهم يحبون فرنسا لكنهم يريدون أن يدفنوا هناك »[76].

يومئ هذا الحوار بين «وردية» و «إسكندر» بالرغبة العاصفة في العودة إلى الجذور حتى لو كانت هذه العودة بهيئة رفات، ما يؤكد أن الحياة بعيداً عن الوطن ليست حياة، والموت بعيداً عنه مقلق ومخيف وكأنه هاجس بخلود الإبعاد والاقتلاع.

وفي رواية الحفيدة الأمريكية[77] ترسم لنا الكاتبة نفسها صورة أقسى من الصورة المارة بمفارقة مّرة تتحول فيها الفرحة إلى حزن وكآبة والحلم إلى كابوس، فاليوم الذي يحصل فيه اللاجئون على الجنسية، ذلك اليوم الذي يعيشون على أمله، ويعدون له الساعات لأنهم يمنحون فيه الاستقرار وحقوق المواطنة يفجّر عند المقتلع عن وطنه أعتى صروف الحزن والحنين والانشطار «حين راح الأمريكان الجدد الحاصلون على الجنسية يتعانقون ويتبادلون التهاني، حينها سمعت صوت أمي يتحشرج وكأنها تختنق والتفت إليها، ورأيت وجهها الأبيض الوديع، قد صار قرمزياً كمن داهمتها حمى، والدموع تهطل غزيرة من عينيها، وتفّر متبخرة من سخونة خدّيها... مددت يدي وتلقفت يد ماما المتيبسة، بينما الجموع تضم أيديها على مواضع قلوبها وتلهج بالنشيد الوطني الذي تعزفه فرقة للجاز يارب احفظ أمريكا.. غاد بليس... وكان صوت السيدة العراقية بتول الساعور، أمي هو النشاز الوحيد الذي يولول بالعربية : سامحني يا أبي... بابا سامحني»[78].

أن تأخذ جنسية جديدة يعني أن تستبدل هوية بأخرى، وأن تتنازل عن تاريخك المعاش في وطنك، وأن تكون عضواً مفارقاً ومنبتاً عن أهلك ومجتمعك وكل جذورك ومزروعاً في تربة أخرى، ولكن لتعيش هادئاً متزناً عليك أن تتخلى عن ذاكرتك وهو الأمر الذي أومأت باستحالته الرواية، وأعلنت بخلافه أن الوطن ساكن في أهله في الذاكرة العصية على الاضمحلال، وفي الروح القلقة العائمة المتطلعة إليه حيّة وميتة

الخاتمة

في الوقت الذي سجلت فيه الخطابات الروائية الصادرة في هذه الحقبة أشكال الموت المادي (الفيزيقي)، فإنّها لم تهمل موتاً آخر موازياً له، وناتجاً عنه في معظمه، وكان هذا الارتباط بين الموتين هو طغيان مظاهر الموت القسري (الحروب، الاحتلالات، قمع السلطة، الإرهاب)، وهو ما خلّف تعطلاً في حركة الحياة، وخراباً متواصلاً نتج عنه انهيار القيم وانحدار المجتمع، فضلاً عن كوابح أخرى أذاقت فئات عريضة، جرعات من الموت اليومي تمثّل في كبت الحريات، وتضييق الخناق، فتوزّعت شرائح كثيرة بين ظلمات السجون والمنافي النائية، وهي معاني زخرت بها الرواية العراقية، وجسدتها بحس فني وجمالي شفيف، ابتعد عن ضجيج الخطّابة والشعارات الدعائية، والمضامين المؤدلجة.

هوامش البحث

(1) المشكلة الخلقية، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر للطباعة، القاهرة، ط1، 1969، ص30-28.

(2) المجتمع اللا اجتماعي، دراسة في أدب فؤاد التكرلي، علي حاكم صالح، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2011م، ص61.

(3) مقدمة في الفلسفة العامة، د. يحيى هويدي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1979م،

ص360.

(4) أزمة الجنس في القصة العربية، د. غالي شكري، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1991م، ص53.

(5) المجتمع اللااجتماعي، ص118.

(6) ينظر: انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي، العربي الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006م، ص140.

(7) قشور الباذنجان، عبدالستار ناصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2007م.

(8) قشور الباذنجان، ص23.

(9) المكان نفسه.

(10) منزل الغياب، حميد المختار، مؤسسة شهداء العراق، ط1، 2013م.

(11) م. ن، ص73.

(12) المحرقة، مصدر سابق.

(13) م. ن، ص33-32.

(14) م. ن، ص36.

(15) صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، سعاد عبد الله العنزي، دار الفراشة، الكويت، ط1، 2010م، ص87.

(16) الحياة لحظة، ص42.

(17) م. ن، ص43.

(18) الحياة لحظة،ص43.

(19) في المعرفة السردية، الحبيب الدائم ربي، AL- NAYA للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2014م، ص375.

(20) المكان نفسه.

(21) الحياة لحظة، ص44.

(22) قشور الباذنجان، ص115.

(23) قشور الباذنجان، ص115.

(24) م. ن، ص117.

(25) الحلم العظيم، أحمد خلف، دمشق، ط1، 2009م.

(26) ينظر : م. ن، ص30، ص47، ص64.

(27) ينظر : المجتمع اللا اجتماعي، ص130.

(28) ينظر: الجنس والسلطة في ألف ليلة وليلة، محمد عبد الرحمن يونس، الانتشار العربي، لندن، ط1، 1998، ص91.

(29) م. ن، ص133.

(30) ما وراء الحجاب - الجنس كهندسة اجتماعية، فاطمة المرنيسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط4، 2005م، ص12.

(31) ينظر: أدب الأنقاض - دراسة في رواية ما بعد الحرب، سامي كريم موشي، رسالة ماجستير، كلية الآداب ،جامعة ذي قار، 2014م، ص162.

(32) ينظر: المشكلة الخلقية، ص239.

(33) غايب، بتول الخضيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط4، 2009م.

(34) ينظر: غايب، ص254-240.

(35) ينظر: مشكلة الحرية، د. زكريا إبراهيم، مكتبة

مصر - القاهرة، ط3، 1972، ص165-166.

(36) ينظر : م. ن، ص220.

(37) السجن ركيزة الاستعباد وقرينه، شريف حتاته، مجلة فصول، عدد81/82، 2012م، ص102.

(38)ينظر : م. ن، ص106.

(39) السجن ركيزة الاستعباد وقرينه، ص107.

(40) ينظر : المتخيل المختلف دراسات تأويلية في الرواية العربية، محمد معتصم، منشوارتضفاف - بيروت، ط1، 2014م ،ص115. ورواية السجن في العراق دراسة نقدية، هادي شعلان محمد البطحاوي، رسالة ماجستير، كلية التربية جامعة بابل، 2002م، ص23-21.

(41) مجانين بوكا، شاكر نوري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط1، 2012م.

(42) م. ن، ص33.

(43) ينظر : مجانين بوكا، ص36.

(44) م. ن : ص37.

(45) م. ن : ص13.

(46) ينظر : إشكالية الموت في الرواية العربية - دراسات ومقارنات - د. احمد الزعبي ،دار الكتاني، أربد، 1993م، ص55.

(47) مجانين بوكا، ص38.

(48) الإنسان المهدور- دراسة تحليلة نفسية اجتماعية - د.مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2013م، ص134.

(49) مجانين بوكا، ص137.

(50) م. ن، ص51.

(51) م. ن، ص312.

(52) ينظر الإنسان المهدور، ص151-141.

(53) مجانين بوكا، ص42.

(54)ثلاث عشرة ليلة وليلة، سعد سعيد، منشورات ضفاف - بيروت، ط1، 2013م.

(55) ثلاث عشرة ليلة وليلة، ص217.

(56) ينظر المراقبة والمعاقبة - ولادة السجن، ميشيل فوكو، تر:علي مقلد، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الانماء القومي - بيروت، د.ط، 1990م، ص70.

(57) ثلاث عشرة ليلة وليلة، ص223.

(58) ثلاث عشرة ليلة وليلة، ص224.

(59) البطل السجين السياسي في الرواية العربية، المعاصرة، علي منصوري، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، 2008م، ص133.

(60) السرد والاعتراف والهوية، عبدالله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط1 ،2011م، ص15-16.

(61) مشكلة الهجرة في أعمال«محمد عبد الولي» القصصية، وهب روميه، مجلة فصول، المجلد 6، العدد الثاني، 1986م، ص188.

(62) ينظر : سرديات المنفى –الرواية العربية بعد

عام 1967، محمد عبد المجيد الشحات ،دار أزمنة، عمان، ط1، 2006، ص22

(63) يوميات من المنفى، عالية طالب، كتابات عراقية، مكتب حروف للفنون والآداب، العراق، ط1، 2011م، ص114.

(64) م. ن، ض115.

(65) شبكة الانترنت، موقع النور :

www.alnoor.se/articale.asp?id=77118.

(66) ينظر : م. ن

(67) القنافذ في يوم ساخن، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت، ط1، 2012م.

(68) م. ن، ص342، تجدر الإشارة إلى أن شخصية شهاب هي اسم مستعار كنّى به الكاتب عن الشهيد كامل شياع فقد كان صديقه وجعله في السرد إحدى شخصياته وهذا المجتزأ هو من مقالته «عودة من المنفى» المنقول تاما في الرواية عن طريق الراوي.

(69) تحت سماء كوبنهاغن، حوراء النداوي، دار الساقي، بيروت، ط1، 2010.

(70) تحت سماء كوبنهاغن، ص110.

(71) المكان نفسه.

(72) ينظر في تهجير اليهود العراقيين : حارس التبغ، علي بدر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2008 ،ص16، ويا مريم، ص43، ومعظم محكي رواية ملائكة الجنوب، نجم والي ،داركليم، دبي، ط1، 2009م، وفي تهجير العراقيين ذوي الأصول الإيرانية ينظرالروايات: حارس التبغ، ص234-233، وعندما تستيقظ الرائحة، ص22-21

(73) طشاري، أنعام كجه جي، دار الجديد، بيروت، ط1، 2013م.

(74) م. ن، ص54.

(75) طشاري، ص89-88.

(76) م. ن، ص92

(77) الحفيدة الامريكية، أنعام كجه جي ،

(78) الحفيدة الامريكية، ص29.

مصادر البحث ومراجعه

- أدب الأنقاض - دراسة في رواية ما بعد الحرب، سامي كريم موشي، رسالة ماجستير، كلية الآداب ،جامعة ذي قار، 2014م.
- أزمة الجنس في القصة العربية، د. غالي شكري، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1991م.
- إشكالية الموت في الرواية العربية - دراسات ومقارنات - د. احمد الزعبي، دار الكتاني، أربد، 1993م.
- الإنسان المهدور- دراسة تحليلة نفسية اجتماعية - د.مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2013م.
- انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي، العربي الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006م.

- البطل السجين السياسي في الرواية العربية، المعاصرة، علي منصوري، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، 2008م.
- تحت سماء كوبنهاغن، حوراء النداوي، دار الساقي، بيروت، ط1، 2010.
- ثلاث عشرة ليلة وليلة، سعد سعيد، منشورات ضفاف - بيروت، ط1، 2013م
- الجنس والسلطة في ألف ليلة وليلة، محمد عبد الرحمن يونس، الانتشار العربي، لندن، ط1، 1998.
- الحفيدة الامريكية، أنعام كجه جي، دار الجديد، بيروت، ط2، 2009.
- الحلم العظيم، أحمد خلف، دمشق، ط1، 2009م.
- الحياة لحظة، سلام إبراهيم، الدار المصرية، القاهرة، ط1، 2010م.
- السجن ركيزة الاستعباد وقرينه، شريف حتاته، مجلة فصول، عدد81/82، 2012م.
- السرد والاعتراف والهوية، عبدالله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط1،2011م.
- مشكلة الهجرة في أعمال«محمد عبد الولي» القصصية، وهب روميه، مجلة فصول، المجلد 6، العدد الثاني، 1986م.
- سرديات المنفى –الرواية العربية بعد عام 1967، محمد عبد المجيد الشحات ،دار أزمنة، عمان، ط1، 2006.
- صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، سعاد عبد الله العنزي، دار الفراشة، الكويت، ط1، 2010م.
- طشاري، أنعام كجه جي، دار الجديد، بيروت، ط1، 2013م.
- غايب، بتول الخضيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط4، 2009م
- في المعرفة السردية، الحبيب الدائم ربي، ALNAYA للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2014م.
- قشور الباذنجان، عبد الستار ناصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2007م.
- القنافذ في يوم ساخن، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت، ط1، 2012م.
- ما وراء الحجاب - الجنس كهندسة اجتماعية، فاطمة المرنيسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط4، 2005م.
- المتخيل المختلف دراسات تأويلية في الرواية العربية، محمد معتصم، منشوارت ضفاف - بيروت، ط1، 2014م.
- مجانين بوكا، شاكر نوري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط1، 2012م.
- المجتمع اللا اجتماعي، دراسة في أدب فؤاد التكرلي، علي حاكم صالح، التنوير للطباعة

والنشر، بيروت، ط1، 2011م.
- المحرقة، قاسم محمد عباس، دار المدى – دمشق، ط1، 2010.
- مشكلة الحرية، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر - القاهرة، ط3، 1972، ص165-166.
- المشكلة الخلقية، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر للطباعة، القاهرة، ط1، 1969
- مقدمة في الفلسفة العامة، د. يحيى هويدي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1979م.
- منزل الغياب، حميد المختار، مؤسسة شهداء العراق، ط1، 2013م.
- ورواية السجن في العراق دراسة نقدية، هادي شعلان محمد البطحاوي، رسالة ماجستير، كلية التربية جامعة بابل، 2002م.
- ينظر المراقبة والمعاقبة - ولادة السجن، ميشيل فوكو، تر: علي مقلد، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الانماء القومي - بيروت، د.ط، 1990م
- يوميات من المنفى، عالية طالب، كتابات عراقية، مكتب حروف للفنون والآداب، العراق، ط1، 2011م.